أنطولوجيا الخوف في روايات ياسين شامل

م. د. فيصل سوري حمد
المديرية العامة للتربية في محافظة نينوى

المستخلص:

يسعى هذا البحث إلى كشف نوازع الخوف وبواعثه في روايات (ياسين شامل)، بوصفه عاملاً نفسيًا لازم الشخصيات الروائية وجسد أبعاداً سياسية واجتماعية، إذ برز الروائي العراقي ياسين شامل كصوت سردي ناجح في ساحة السرد العربي من خلال رواياته المتعددة التي لامست أحداث وحقائق واقعية، ونهضت متونها على توثيق تحولات ومتغيرات تاريخية وسياسية مرّ بها وطنه العراق والعالم العربي. كما برزت قدرته على نحت شخصيات فاعلة في محور الأحداث، فالشخوص جاءت قلقة ومرتابة تتنازعها هواجس ورغبات مستقبلية، مما جعلنا نلمس شخوص حقيقية نابضة من لحم ودم تحزن وتضطرب وتتطلع نحو مستقبلها بحرقة وألم. كما تميزت روايات ياسين شامل بقدرتها على احتواء الواقع ونبذه عبر تعرية انظمته الدكتاتورية من خلال عمل فني متكامل البناء والوقائع والشخوص، فالعامل المشترك بين تلك الأعمال هو أنها تتحرك ضمن انساق مجتمعية وسياسية سيئة، مما جعل شخوصها لا تخلو من بواعث الخوف والقلق والألم والحزن وهي تخرج من معترك تلك الأحداث. برز الخوف كثيمة وخيط سردي وحد المناخ العام للشخوص، والذي جعلنا نعاين ليس روائياً فقط قام بحبك الأحداث وصنع عملاً متخيلاً بل انساناً وفرداً حمل هماً عراقياً نتيجة بيئة أبوية زرعت الخوف في فضاء متشح بالفوضى واللامبالاة، الخوف تجسد بهيئة شبح غير مرئي يلاحق الانسان العراقي منذ الولادة حتى الممات، بوصفه انفعالاً وهاجساً غير سار نتج عن الإحساس بوجود خطرٍ ما متوقع حدوثه، هكذا استطاع الروائي أن يتوارى خلف شخوصه لتعرية انظمة وحكومات مزيفة على كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فظهر اللص إلى جانب المجرم والقاتل والخائن والعميل والمندس، والمنحل أخلاقياً إلى جانب المثقف والروائي، والوطني إلى جانب الثائر، والجبان إلى جانب الشجاع. وقد توزعت مساحة البحث على بعدٍ نظري تناولنا فيه معنى الخوف المصطلح والمفهوم، ثم تناولنا في الجانب التطبيقي : بواعث الخوف، والذي قسم على محورين: الباعث السياسي، والباعث الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: (الخوف، اجتماعي، نفسي، سلطة)

Anthology of fear in the novels of Yassin Shamel

Dr. Faisal Syrian Hamad
Directorate General of Education in Nineveh Governorate

Abstract :

This research seeks to reveal the motives of fear and its motives in the novels of (Yassin Shamil), as a psychological factor that accompanies the fictional characters and embodies political and social dimensions. Its contents document the historical and political transformations and changes that his country, Iraq and the Arab world went through. His ability to carve active characters at the center of events was also highlighted. The characters came anxious and suspicious, conflicted with future concerns and desires, which made us touch real, pulsating characters of flesh and blood who grieve, turmoil, and look towards their future with burning and pain. The novels of Yassin Shamel were also distinguished by their ability to contain reality and reject it by exposing its dictatorial regimes through a work of art that is integrated in structure, facts and characters. of those events. Fear emerged as a theme and narrative thread that unified the general climate of the characters, which made us see not only a novelist who loved events and made an imaginary work, but a person and an individual who carried Iraqi anxiety as a result of a patriarchal environment that planted fear in a space full of chaos and indifference. Fear was embodied in the form of an invisible ghost that haunts the Iraqi person from birth Even death, as an emotion and an unpleasant obsession that resulted from a sense of the existence of an expected danger, thus the novelist was able to hide behind his characters to expose fake regimes and governments at all political, social, cultural and economic levels, so the thief appeared on the side of the criminal, the murderer, the traitor, the agent, the infiltrator, and the morally decadent alongside The intellectual and the novelist, the patriot on the side of the revolutionary, and the coward on the side of the brave. The research area was divided into a theoretical dimension in which we dealt with the meaning of fear in language, terminology, and concept, then we dealt with the practical side: the motives of fear, which was divided into two axes: the political motive, and the social motive.

مهاد نظري:

أولاً: الخوف المصطلح والمفهوم.

أ- مصطلح الخوف:

كثرت تعاريف الخوف، نتيجة تشعب الدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية حوله، فقد جاء في المعجم الفلسفي أن الخوف هو" انفعال نفساني يعرض عن تصور شر قريب"[١]، أي أن الخوف" يعرض من توقع مكروه، وانتظار محذور، والتوقع والانتظار إنما يكونان للحوادث في زمان المستقبل"[٢]، بمعنى أنه انفعال قوي غير سار ينتج عن الإحساس بوجود خطرٍ ما متوقع حدوثه. ومن الفلاسفة الأوائل الذين تحدثوا عن الخوف (ارسطو) إذ عرفه بأنه "حزن أو اضطراب ناشئ عن تخيل شر داهم سيسبب تدميراً أو أذى"[٣]، وهذا التعريف ليس بعيداً عن تعريف الإمام الغزالي الذي عرفه أيضاً بأنه "عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع المكروه في الاستقبال"[٤]، فيطلق الخوف إذن على الحالة التي يتكشف فيها عدم الأمان، وهو حالة مرهونة بعلتها تسبقه علامات مثل الشك والريبة والتشويش والاضطراب والقلق وصولاً إلى الفزع. فضلاً عن ذلك اخذ الاهتمام بتعريف الخوف من جانب العلوم النفسية حيزاً كبيراً، ومع ذلك نجد من الصعب العثور على تعريف جامع مانع له، فقد عرّفه (روس) بأنه "انفعال غريزي أساسي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحافظة على البقاء وهو ضرورة من ضرورات الحياة، فهو يعين صاحبه على تجنب المخاطر"[٥]، ويذهب (شيفر) الى أن الخوف يرد كعاطفة سلبية فهو "عاطفة قوية غير محببة سببها إدراك خطر ما"[٦]، فمن وجهة نظر علم النفس يعد الخوف حالة نفسية حالها حال الفرح، إذ يستولي الحزن على الذات بصورة مفاجئة ولا إرادية، فلا يمكن التحكم فيه، لأنه " انفعال ودافع يتضمن حالة من حالات التوتر تدفع بالخائف إلى الهرب من الموقف الذي أدى إلى استثارة الخوف حتى يزول التوتر ويزول الانفعال"[٧]. وللخوف درجات متفاوتة الشدة ادناها الخشية، وأعلاها الذعر. وشدة الخوف تكون في العادة متناسبة مع عظم المكروه المتوقع. وقد قيل إن توقع الخوف خوف، إلّا أن بعض الأشخاص يستشعرون الخوف من أشياء لا تبعث بطبيعتها على الخوف لمرضٍ في نفوسهم، ويسمى الخوف بالخوف المرضي كالخوف من الفضاء أو الخلاء أو الحبس والخوف من الحيوانات والماء[٨]. وبتعدد مسببات الخوف تعددت حالاته وتفاوتت درجاته.

ب- مفهوم الخوف.

إن الخوف شعور داخلي لازم الانسان منذ أن ابصر عالماً واسعاً مكتظاً بالخفايا والمجاهيل، وهو يتحسس ما حوله بريبة وحذر. ويرى بعض العلماء أن الخوف "استجابة انفعالية تلازم الفرد من المهد إلى اللحد، ويصبح أحد القوى التي تعمل على البناء أو الهدم في تكوين الشخصية ونموها"[٩]، إذ يعد الخوف أحد الانفعالات التي يعيشها الانسان في حياته ومن أكثرها شيوعاً والتي تثيره مواقف عديدة لا حصر لها، فقد تتباين تبايناً كبيراً في حياة مختلف الأفراد، كما تتنوع شدته من مجرد الحذر إلى الهلع والرعب، يعد الخوف أحد القوى التي تعمل على البناء أو الهدم في الشخصية [١٠]، فهو شعور و"حالة طبيعية في نفس الإنسان لا تخرج به على سوائه، ولاسيما عندما يكون من ذلك النوع الذي يصيب البشر مثل الخوف من الموت، أو من الشيخوخة أو من المستقبل أو من الخيبة"[١١]، فالخوف بلا شك أمر طبيعي وهو موجود منذ الأزل، لكن ظاهرة الخوف اخذت تتزايد مع التقدم العلمي والتطور التكنلوجي الحديث، إذ وضعت الانسان في دائرة القلق المستمر عندما عجزت كشوفاته عن ايجاد العلل والحلول للكثير من المسائل الكونية والبشرية مما قلصت من حريته وقيدته هذا من جانب، ومن جانب آخر لا ننس الحروب والفوضى السياسية التي حولت المجتمعات إلى شريعة الغاب. فـ "الذي لا يخاف إطلاقاً مخلوق غير موجود في عالمنا الحي، ولو فرضنا_ جدلاً _ وجوده لما استطاع أن يبقى، ذلك بأن الخوف متصل بحفظ البقاء، والمخلوق _ انساناً أو حيواناً _ الذي لا يخاف يصعب أن يبقى"[١٢]، فضلاً عن ذلك يأتي الخوف "استجابة لبعض المثيرات المنتجة له مثل : الشك والتردد والفزع والاشمئزاز، وتُثار هذه الاستجابات بحدوث بعض الأشياء التي قد توصف بصفات متعددة مثل مخيفة، محذرة، واستجابة الخوف قد تؤدي إلى استثارة سلوك آخر مثل : الهرب أو الرعب أو الذعر أو الهجوم"[١٣]، فهناك من يرى أيضاً أن الخوف "أحد الانفعالات البدائية العنيفة يتملك المرء فيشله عن الحركة، ويخمد نشاطه، ويتصف الخوف بحدوث تغيرات واسعة المدى في الجسم، كما يتصف بسلوك لدى الشخص قوامه الهرب أو الفرار أمام المثير الخارجي"[١٤]، بينما عد البعض الخوف اشارة تهدف إلى الحفاظ على الذات، وذلك بتعبئته الامكانات الفيزيولوجية للكائن الحي، إذ يبدأ الخوف على صورة نبض في الدماغ فينبه بدوره الأعصاب الودّية لتنبيه مناطق مختلفة في الجلد وأعضاء مختلفة كالقلب والرئتين والأمعاء لتفرز علامات تدل على الخوف، مثل تعرق راحتي اليدين وخفقان القلب وتسرع النبض والتنفس وجفاف الحلق وغيرها من الاضطرابات والتغيرات الطبيعية[١٥]، فالخوف إذن هو حالة وشعور وجداني يصيب الفرد ويصاحبه انفعال نفسي بدني نتيجة مؤثر خارجي. ومن هنا يصبح الخوف عاملاً سلبياً لدى معظم الأفراد، يجعلهم يهربون من المواجهة والتصدي لأسبابه مما يبعدهم عن البهجة في الحياة ويجعلهم يعيشون كأشخاص عاديين، ولا يخفى اليوم أن للخوف في عالمنا العربي والغربي مسبباته وبواعثه الكثيرة بعضها واضح وبعضها الآخر غامض، مما ولدت الشعور بالقلق والكآبة والنفور والعجز والانطواء والعدم، فضلاً عن ذلك رصدت العلوم النفسية والطبية أكثر الأمراض التي تصيب البشر بنسب عالية تعود إلى ظاهرة الخوف.

ثانياً: بواعث الخوف:

برزت ظاهرة الخوف في كتابات ياسين شامل، للتعبير عن نسق سياسي واجتماعي وثقافي سلبي، إذ رافقت شخصياته السردية حتى غدا الخوف لازمة وثيمة سردية مهيمنة داخل مسرح الأحداث، وهذه الظاهرة ارتبطت عند الروائي بحقبة تاريخية معينة من بلده العراق، عاش الروائي تفاصيلها الاجتماعية والسياسية الدقيقة، والذي أحس فيها بتقلص فضاء الحرية، وهذا ما جعل شخوصه السّردية تأتي متلبسة بحالات الخوف والفقر والرعب والقلق. لأن الخوف ينزرع في المجتمعات التي تصنع الخوف سواء وقفت وراءه بواعث سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية. فالإنسان العربي خصوصاً عَرف الخوف منذ زمن بعيد؛ لأن حياته في معظمهما كانت قائمة على الخوف ومحاولة السيطرة عليه، فالإنسان منذ عصر ما قبل الاسلام عاش في بيئة صحراوية مليئة بالمخاوف تحفه بمجاهيلها ومخاطرها، التي جعلته قلقاً حيال مكان صحراوي يحتوي كل ما هو مخيف وغدار، إذن ظاهرة الخوف تقف خلفها

عوامل عديدة بعضها راجع إلى (البيئة) / المكان ثم مروراً بالعامل السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهذا ما جعلنا نوزع البحث على محورين بارزين في روايات ياسين شامل هما: الباعث السياسي، والباعث الاجتماعي.

أ- الباعث السياسي:

يعد الخوف السياسي هو الأكثر خطورة على المواطن، وهو يحدث نتيجة تفاعل الغرب مع جماعة سياسية ومع السلطة في مجتمعه. فمفهوم المواطنة مفهوم غامض في مجتمعاتنا العربية، إذ تستطيع سلطة النظام أن تقوم بتفريغ معنى المواطنة من مضمونه الحقيقي[١٦]، يقول الاستاذ محمد صالح : إن المجتمعات العربية في الوقت الراهن واقعة تحت حالة ضغط مزدوجة من التخويف أولها تخويف الأنظمة لشعوبها (خوف داخلي)، وثانيها تخويف الدول العربية للمجتمعات العربية (تخويف خارجي). ويعد أخطر أنواع التخويف هو التهديد بالغزو والاحتلال والإطاحة بالنظام وتفكيك المجتمعات وإشاعة الفتن والإرهاب وتحويل الترهيب والترويع إلى فلسفة رسمية للسلطة[١٧]. التي بدورها تؤدي إلى نشر مظاهر الخوف عبر هدم مستقبل الشعوب واحلال الفوضى على الأصعدة كافة. فإن اقسى أنواع الخوف ذلك الذي يتأجج على شكل صراع مقترن بعدوانية مستثارة من قبل الرؤساء، وتحويلها نحو قوى، جماعات، شعوب، حكومات، زعماء، بهدف النيل منهم[١٨]، والأخطر ما في الخوف لا يكمن في الجانب (الفيزيقي / البيولوجي) إنما بذلك النوع المصنّع والوهمي منه والذي ينبعث بكيفيات مجهولة ولاسيما الخوف من السلطة.

وقد لجأ أغلب الروائيين إلى كتابة مواضيع تمثل حالة الخوف بوصفه سلطة قاهرة عند الشخصيات للتعبير عن صراع داخلي أو خارجي ترك أثره على الواقع، وراح الروائي يسرده في عمل أدبي مضمخ بالأبعاد السياسية ونقد الحكومات والأوضاع الراهنة، فضلاً عن ذلك يبدو أن أكثر الروايات التي تعالج قضايا واقعية عامة لا تخلو من ثيمة الخوف، إلا أن الخوف في روايات ياسين شامل شكّل ظاهرة بارزة جعلت شخوصه قلقة حيال وقوعها تحت سلطة دكتاتورية أو أعراف اجتماعية لا ترحم، ذلك أن الخوف ربما مرضاً عصابياً ناتجاً عن مؤثرات خارجية، وقد يكون الخوف مبرراً حينما يقع الفرد تحت سلطة جبارة أو الحروب والكوارث والفقر إلى حد الصراع ضد مجهول يهدد مستقبله في الحياة. وما الصراعات التي نمت في النفس إلا نتيجة لخوف أرهق الانسان منذ ولادته، وما الحروب والتفاوت الطبقي والفقر في روايات ياسين شامل إلا سلسلة من المشاهد الحية التي سرقت من المخيلة جمالية الحياة، والمرتبطة بأوقات متفاوتة من حرب وصراعات داخلية وخارجية تركت أثرها البالغ في ذاته أولاً ثم في كتاباته الروائية ثانياً. ففي إحدى رواياته نلمح سردية الخوف كظاهرة بارزة تؤرخ لحقبة سياسية عنيفة من تاريخ العراق، إذ يقول على لسان الشخصية :

((حتى عامة النَّاس كانت متضايقة، قلقة، أربكتها تلك الظروف، ولو كانت لهم رقاب منكمشة لم تشرئب بعد، رقاب قصيرة أو طويلة، لم يجد نفعاً التطلع إليها، فهي تخشى، الخيال، فقد كثرت الإعدامات في هذه الأيام.

النَّاس لا يهتمون لشراء الأشياء بقدر ما يحاولون _ تحت ضغط الظروف القاسية _ توفير ما يسد الرمق، وينعش الرئتين، ليستمروا في حياة لا لمعنى ما، ليستمروا في الحياة وحسب، لعل الضيق يزول عنهم. يمارسون أبسط حق في البقاء في هذه الحياة بغريزة عفوية رغم كل المعوقات التي تحيط بهم. فالخوف يداخلهم على مستقبل أولادهم، وحياتهم ووجودهم. ذلك الخوف الغريزي المستديم في بلد يعج بدوامات الرعب ويحترق في أتون الترهيب، والموت، يشل التفكير ويمسخ الإنسان. إنها حقاً مأساة، أن يشعر جمال أو غيره بأبعادها، وبما يحيط به من حقائق وأوهام، ويرى نفسه شخصاً آخر، الخوف، والموت، والرغبة، والانكسار...))[١٩].

هكذا تعبر سردية الخوف عن واقع سوداوي مظلم، تصبح أماني البشر فيه فقط أن تبقى على قيد الحياة لا غير، وهي أدنى أمانيها في مدة زمنية انعدمت فيها ابسط حقوق الانسان، فالترهيب والخوف يشل التفكير ويمحق الذات. فالخوف يلاحقهم في كل شيء، الخوف من السلطة تشكل على شكل أوهام وظلال وهواجس تعذب النفس، فهي تخشى (الخيال)/ خيال السلطة، خوفاً من الاعدامات، حتى في مستقبل اطفالهم الذين لم يولدوا بعد. ومن هنا استطاع الروائي أن يدخل القارئ في فلك الخوف ويسرد تاريخاً دكتاتورياً عاتياً، زرع الرعب في أفئدة الناس، فالخوف من السلطة شيء متعارف عليه قانونياً ورباني‌اً، ولكن أن تحاول تلك السلطة اتباع سياسة البطش والترويع والظلم من أجل بقائها متسيدة هذا شيء آخر. وقد عبّر الروائي عن ظلم السلطة وبطشها على الناس باستخدام الحوار الداخلي وحديث النفس الصامت، في التعامل مع الآخرين. إذ نراه يكشف عن ظلم السلطة وفقدان الأمن والأمان الباعث على الخوف والرعب :

((هم خائفون حتى من الجدران، أحياناً يتهامسون، لئلا يشعر بهم أحد ولا يضمنون العواقب فيما لو وصلت شكواهم آذان الآخرين المنصتين لهم والمتربصين بهم، وهل يدركون حقاً، من يتلاعب بأوضاعهم؟ نعم إنهم يدركون ويتضجرون، لكنهم لا يتكلمون. فالخوف يسكن في عمق القلوب، وقد سمعوا عن حوادث مماثلة جرت، وتم إصدار الإحكام بسرعة مذهلة بحق تجار المواد الغذائية. الكلام محظور في أي اتجاه إلا باتجاه واحد، وصار الكلام الشحيح الذي قد يتفوه به المرء أهم وأخطر من كتب تم تأليفها لغرض موجه، ويكون الإنسان محسوداً لأنه ينأى عن كل شيء كي يعيش في حيز السلام المفترض. أخذت المقابر حصتها من الذين يتفوهون بكلامهم دون حذر، فالسلطة لا تعدم وسيلة لتكميم الأفواه، أو استنطاق من أطبقوا أفواههم، ولم يتشدقوا بالكلام المباح الذي تريده السلطة))[٢٠].

يعود السارد إلى تمثيل حقبة زمنية مرعبة من تاريخ العراق الدكتاتوري، عراق الحجاج ومن مثله، فلا أحد ينكر مراحل الرعب التي عاشها الانسان العراقي في ظل حكومة تحاول تكميم الأفواه وعدم الاعتراف بخطئها وخللها. فالخوف موجود حتى في الهواء والماء، في عيون المارة وحديث العشاق. فرعب السلطة تجسد هذه المرة بالصوامت / الجمادات، التي تأنسنت لتسرق السمع، فهي كناية عن اذناب السلطان وحاشيته القتلة. هكذا يعود بنا الروائي إلى تمثيل واقع حقيقي من تاريخ العراق، الذي لم يخلُ يوماً ما من اصدار حكم المساس بها. فهي سلطات مزيفة تمتحن الحيل لاستدراج الضحية وادانتها، بدليل أنها لا تصرح بالخوف، فالخوف من السلطة من أعقد البواعث في المجتمعات العربية التي نشأت تحت ظلال حكومات مزيفة دكتاتورية تفتك بالآخر بمجرد التعبير والمناداة بحقوقها المشروعة. وباتت كل سبل التعبير عن الحقوق مدانة وتعد خرقاً لسيادتها. إذ لا قانون إلا

قانون الترويع والخوف.

وفي نص آخر يؤرخ فيه الروائي لحقبة مؤلمة من تاريخ العراق الحديث، وهي تاريخ الفوضى واللاسلطة بعد الغزو الامريكي للعراق، فنشوء دوامة الفتن والاضطرابات والجماعات المسلحة المنفلتة، والذبح في زمن الفتنة الطائفية، حولت العراق إلى مستنقع من الدم، ودخل الفرد والانسان العراقي في نفق الخوف، الخوف الذي هز الأبدان، لقد بات الانسان مداناً لا لأي سبب فقط لأنه وجد على هذه الأرض، وانتمى لها، فالموت اصبح علامات وشعارات يقرؤه في كل شيء على جدران البيت، الشوارع، وعيون المارة:

((ما هذا الخوف الذي لف الحياة في ظل الاضطراب والانفلات الأمني، ماذا أفعل لو واجهت مخاطر حقيقية؟ خففت من روعي كون الناس في هذه المنطقة مسالمين، هذا ما يقره الجميع. أكثر ما أزعجني تصفية الحسابات القديمة التي انتشرت أخبارها في هذا الوقت، واشمأزت من الكتابات المهلهة على الجدران بلون أسود "صاحب الدار مطلوب عشائرياً"، وقرفت من الكتابات بالأحمر" صاحب الدار مطلوب دم"، والعبارات النارية التي تشي بالاقتتال والموت))[٢١].

هكذا تجسد الخوف في كل شيء، في الكلام المنطوق والمدون، إذ برعت سياسة الدم في قتل الحياة، وجعلت الانسان العراقي لا يفكر سوى في النجاة. روايات تخاطب الذاكرة والوجدان وتعري الزيف والنزيف المر والانفلات الأمني، والعودة إلى جاهلية الثارات والعشائرية، وكل هذا جاء دليلاً على فشل الحكومات وسياساتها الغبية.

ب- الباعث الاجتماعي:

الحقيقة أنه لا أحد يملك مناعة ضد الخوف الاجتماعي، فاحتمالات إصابة أي واحد منا واردة في أية لحظة، كما أن المُطلع على الدراسات يجد أن حالات الخوف الاجتماعي واسعة الانتشار بشكل متفاوت بين المجتمعات، إذ تؤدي العوامل التربوية والاجتماعية والثقافية دوراً كبيراً في هذا الانتشار[٢٢]، فالخوف الاجتماعي هو خوف غير عادي وهو إما خوفاً من شيء أو من موقف لا يعد في العادة مخيفاً مثل المصاعد أو الحيوانات أو الخوف من ركوب الطائرة وغيرها[٢٣]، ومما لاشك فيه أن بعض الاضطرابات النفسية والاجتماعية هي تضخيم للأمور النفسية الطبيعية التي تحدث مع كل إنسان ولكنها قد تتطرف وتزداد درجتها وحدتها لتصبح مرضاً واضطراباً معطلاً، فالحزن الطبيعي يمكن أن يتحول إلى اكتئاب مرضي والفرح العادي إلى هوس مرضي، والخوف من الغرباء إلى مواجهة الناس ومن المناسبات الاجتماعية، ومن ثم تجنب العلاقات الاجتماعية قدر الإمكان، هذا الأخير يمكن أن يتحول إلى ما يسمى الرهاب الاجتماعي أو الخوف الاجتماعي[٢٤]. الذي يصيب الفرد نتيجة ضغوطات وعقد اجتماعية. فالإنسان كائن اجتماعي يستجيب ويعمل ويؤثر في بيئة ويتأثر بها، وهو مهيأ للاستجابة الانفعالية في ضوء نظامه الوراثي، وليس المكتسب فحسب.

يبدو أن الخوف هو الذي يجمع بين شخصيات ياسين شامل في أعماله الروائية، فهو لازمة اساسية رافقت الشخوص حتى مماتها، الخوف من الحياة والناس والمجتمع والمستقبل، فالخوف الاجتماعي عنده هو صدى للباعث الأول، الذي لا ينفصل عنه، إنها بمعنى آخر تسرد لأحداث مجتمعية وحياة قاسية مليئة بالظلم والقسوة والفقر، فالشخصيات في ظل وثائقية الأحداث والزمن تعاني وتتألم وتتطلع للخلاص من واقع اجتماعي مزرٍ باعث على الخوف، إذ يقول في إحدى رواياته :

((فكلما عاد أبوها متأخراً بوضع مختلف، تشم فيه، وفي ثيابه رائحة النساء، لكنها لم تشم رائحة أمها فيه، كونها لا تعرف رائحتها. كان يقلقها ذلك الإحساس الذي تبدو فيه مقيدة ومشتتة وتستغرق في التفكير، ولا تجد له تفسيراً. وكثيراً ما كانت تشعر بالعجز، وتبقى ساهمة طويلاً، ثم يتحول هذا العجز إلى خوف، ولا تجد القدرة على البوح إلى أي أحد من المقربين إليها. كان في داخلها الكثير الذي يمور، وتريد أن تنفثه خارجاً، لا يسدي أبوها أو جدتها أية خدمة لمساعدتها ربما كانا غير مؤهلين لمعرفة ما يدور بداخلها حتى لو أفضت به لهما. تريد أن تتخلص من ذلك الخوف القابع داخلها، وأن لا تمر بها لحظات الخوف تلك، تريد أن تصبح بلا خوف. وقلبها لا يخفق منه)) [٢٥].

تبدو عقدة الخوف هنا بائنة في بناء الشخصية، فـ(مها) الطفلة التي هجرتها أمها ومازالت صغيرة لتتكفل جدتها بتربيتها اصبحت الآن تدرك الفراغ الأمومي الذي اقلقها وزرع فيها مخاوف مجهولة، غياب الأم المفاجئ هو الذي جعلها تشعر بالعجز في كشف السر والذي شكل باعثاً للخوف، فهي تعيش تحت تسلط اجتماعي، ونسق أبوي قاهر يمنعها من طرح هكذا اسئلة. ومن هنا يتجلى الخوف بصورة القلق والرهبة من الخطر والمنغصات التي تقلق راحة الإنسان وامنه وحياته، فحين يتعزز باعث الخوف يتحول إلى قلق نفسي فيبرز في كلام الشخص وتصرفاته، فكلما ازدادت المخاوف ازاد قلق الانسان معه. وأحياناً يتحول الخوف إلى أزمة لا يمكن حلها حين تقترن بالوجود والخلق التي تدخل في الجانب الروحي والعقائدي، فجمال أحد الشخصيات الرئيسة، اصبحت تنتابه أسئلة غامضة لا يجد لها حلولا :

((لا يدرك جمال من الذي أتى به إلى هذا الوجود، ليس لديه فكرة واضحة عن الوجود، ولا رأي رصين عن ماهية الخلق والحياة، لا يرى في نفسه إلا مخاوف يقاتل في سبيل الخلاص منها))[٢٦].

إن الروائي ياسين شامل يصنع شخصياته متكئا على سردية الخوف، فهي شخصيات قلقة تعاني من أزمة اجتماعية او اقتصادية أو عرفية نسجت منهم أفراد مكبلين، يحسبون ألف حساب لكل كلمة يتفوهون بها، فالخوف والخجل والتردد والقلق والانكسار هي أبرز الصفات التي تجمع بين هذه الشخصيات في عمل أدبي يؤرخ لمعناة مجتمع ووطن تسوده دوامة الخوف والضياع :

((بدتْ منزعجة جداً، ولم ترحب بي، نظرت لي شزراً، وأخذت كيس المال، قبل أن أتفوه بكلمة، انتزعته بقوة. سمعتها تسبني، لو قالت عني جبان، ماكنت أهتم، لعلها قالت الحق فأنا أعترف مع نفسي بأنني لست شجاعاً. كنت أجد صعوبة بالكلام، لكنها وصفتني بكلمات بذيئة اصابت رجولتي بكلامها، صنفتني دون وصف الرجال، وأوطأ من النساء المومسات، أحمر وجهي، ولم استطع الرد عليها، كنت أظن نفسي طيباً، وكل النساء مثل الملائكة طيبات))[٢٧]،

فمنصور أحد الأشخاص البسطاء الذين يحملون تابو مغايراً لما يسود عالم الفساد والنصب والسماسرة، جره الزمن ليدخل فضاء اللصوصية ويجرب الجانب المظلم من وجه الإنسان السيء، الذي لم يندمج فيه ليشعر بأنه إنسان غريب ومغترب عن عالمهم، وهذا ما جعله يعترف بأنه (جبان) أو خائف، داخل مجتمع منحل اخلاقياً تقوده مجموعة من(المومسات) والعواهر. وقد عنون الروائي ياسين شامل إحدى روايته بـ(الجبان)، هذا العنوان يختزل سلطة الخوف، ويعري النفس الانسانية الضعيفة،

والضعف هنا لا نعني به الخوف فقط قدر ما يخرج إلى التعبير عن تهالك الذات وتلبية رغباتها الشريرة. جاء الإهداء في مستهل روايته (إلى كل شجاع) الذي احدث عملية تنافر دلالي مع العنوان، كما يتصور القارئ للوهلة الأولى، ولكن عندما نمضي في بنية السرد ونوازع الشخوص نكتشف أن الشجاعة هنا هي الوجه الآخر للجبن/ الرذيلة/ الانحطاط الخلقي. إنها شجاعة القتلة واللصوصية التي راحت تسرق وتقتل وتنهب وتتاجر بالعرض والمال، على حساب الشرفاء. فهي مرافعة وإدانة ضد كل انسان شجاع/ جبان، سلبي يحاول أن يغتص من الآخر السوي.

الاستنتاجات:

بعد الفراغ من كتابة هذا البحث تبين الآتي:

* إن الخوف كمفهوم هو ظاهرة أزليه رافقت الإنسان والكائن الحي، فهو أحد الانفعالات التي يعيشها الإنسان في حياته، ومن أكثرها شيوعاً، بوصفه ناتجاً عن الإحساس بوجود خطر ما متوقع حدوثه، ولكن ظاهرة الخوف اخذت تتزايد بتزايد الحروب والصراعات والتقدم العلمي والتطور التكنلوجي الحديث.
* برز الروائي العراقي ياسين شامل كصوت سردي ناجح في ساحة السرد العربي، من خلال رواياته المتعددة التي لامست أحداثها حقائق واقعية، ونهضت متونها على توثيق تحولات ومتغيرات تاريخية وسياسية واجتماعية مرّ بها وطنه العراق والعالم العربي.
* تجلت ظاهرة الخوف في كتابات ياسين شامل للتعبير عن نسق سياسي واجتماعي وثقافي سلبي، إذ رافقت عقدة الخوف شخصياته السردية، حتى غدت لازمة وثيمة بارزة داخل مشروعه الكتابي. عرى من خلالها فترات زمنية معينة، وأنظمة سيئة مليئة بالتناقضات والقمع السياسي والفوضى المجتمعية.
* برز العامل السياسي كباعث من بواعث نشوء ثيمة الخوف في كتابات ياسين شامل، ذلك أن المجتمعات العربية في الوقت الراهن واقعة تحت حالة ضغط مزدوجة من التخويف الداخلي والخارجي، بيد أن الخوف الداخلي كان الأكثر هيمنة على تفكير الشخوص وتحركاتها وتطلعاتها المستقبلية، بوصفها واقعة تحت سلطة أبوية، جعلت من الآخر ضحية مدانة بأي وسيلة كانت.
* حضر العامل الاجتماعي كأحد بواعث الخوف في كتابات ياسين شامل وصدًى للباعث السياسي، الذي ترك ظلاله السيئة على كافة الأصعدة الحياتية الأخرى.

المصادر والمراجع:

*إحياء علوم الدين، تأليف الامام العلامة حجة الاسلام أبي حامد محمد بن محمد بن الغزالي، ت(٥٠٥ه)، بطلب من مكتبة عبد الوكيل الروبي، دمشق، ط١، د.ت.
*الأنماط الفنية والنفسية لصورة الخوف في شعر محمد الماغوط، خالد زغيرت، مجلة المعرفة، ع٥١٧، س ٢٠٠٦
* الاغتراب الانسان المعاصر وشقاء الوعي، د. فيصل عباس، دار المنهل اللبناني، ط١، ٢٠٠٨:
*تهذيب الأخلاق، لأبي علي أحمد بن محمد مسكويه، ت(٤٢١ه)، تحقيق: قسطنطين زريق، الجامعة الامريكية في بيروت، ط١، ١٩٦٦.
*ثقافة الخوف، إيمان نظام يوسف عودة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الفنون الجميلة،
الجبان، رواية، ياسين شامل، دار أمل الجديدة، سورية، دمشق، ط١، ٢٠٢١
*الخطابة، ارسطو، ترجمه عن اليونانية وشرح وقدم له، د. عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام سلسلة الكتب المترجمة، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٨٠.
* الخوف عند الأطفال، روس هيلين، ترجمة: محمد خيري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٤.
* سيكولوجية الطفولة والمراهقة مشكلاتها وأسبابها وطرق علاجها، شيفر وملمات، ترجمة : سعيد حسني العزة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦.
* الشمس خلف الغبار، رواية، ياسين شامل، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٣
*أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ٢٠٠٤
* آراء علماء النفس في الخوف ومثيراته، محمد سعيد عبد الغني،
* الرهاب الاجتماعي لدى الأبناء، هايدي عبد الحميد، محمد العزاوي، المجلة العلمية لكلية رياض الأطفال، جامعة المنصورة، المجلد(٤)، س (٢٠١٧).
*علاجك النفسي بين يديك، كيلر ويكس، ترجمة: عبد العلي الجسماني، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤
*موسوعة علم النفس، اسعد رزق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٧
*مدخل إلى علم النفس، د. حكمت دوو الحلو ود. زريمق خليفة العكروتي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤
* المرجع في علم النفس، د. سعد جلال، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٦٦.
* مشكلات الأطفال اليومية، د. دوغلاس توم، ترجمة : اسحق رمزي، ١٩٥٣
* المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج(١)، ١٩٨٢.
*نساء ماهر الخيالي (رواية)، ياسين شامل، دار شهريار، العراق، البصرة، ط١، ٢٠١٨.

[١] - المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج١ :٥٤٥.
[٢] - تهذيب الأخلاق، ابن مسكويه : ٢٠٦.
[٣] - الخطابة، ارسطو، ترجمة : عبد الرحمن بدوي : ١١٨.

[٤] - إحياء علوم الدين، الغزالي، ج٤ : ١٣٥ .
[٥] - الخوف عند الأطفال، روس هيلين، ترجمة : محمد خيري، ١٤ .
[٦] - سيكلوجية الطفولة والمراهقة، شيفر وملمان، ترجمة : سعيد حسن : ٩١.
[٧] - المرجع في علم النفس، سعد جلال : ٣٣٠.
[٨] - ينظر : المعجم الفلسفي، ج١ : ٥٤٥.
[٩] - مدخل إلى علم النفس، د. حكمت دوو الحلو، ود. زريمق خليفة العكروتي : ٢٠٤ .
[١٠] - مشكلات الأطفال اليومية، دوغلاس توم، ترجمة : اسحق رمزي : ١٤١ .
[١١] - الأنماط الفنية والنفسية لصورة الخوف في شعر محمد الماغوط، خالد زغريت، مجلة المعرفة، ع ٥١٧، س ٢٠٠٦ : ١٠٣ .
[١٢] - أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل : ٢١٣.
[١٣] - آراء علماء النفس في الخوف ومثيراته، محمد سعيد عبد الغني : ٢٠.
[١٤] - موسوعة علم النفس، اسعد رزق : ١٢٨ .
[١٥] - ينظر: علاجك النفسي بين يديك، كيلرويكس، ت : عبد العلي الجسماني : ٢٠ .
[١٦] - ينظر : ثقافة الخوف ، إيمان نظام يوسف عوده : ١٦.
[١٧] - ينظر : ثقافة الخوف : ١٧ .
[١٨] - ينظر: الاغتراب الانسان المعاصر وشقاء الوعي، د. فيصل عباس، دار المنهل اللبناني، ط١، ٢٠٠٨: ١٩٢ .
[١٩] - الشمس خلف الغبار(رواية)، ياسين شامل : ١٥-١٦.
[٢٠] - الشمس خلف الغبار(رواية) : ٢١.
[٢١] - نساء ماهر الخيالي (رواية)، ياسين شامل: ٦٨.
[٢٢] - ينظر : الرهاب الاجتماعي لدى الأبناء، هايدي عبد الحميد محمد الغزاوي، المجلة العلمية لكلية رياض الاطفال، جامعة المنصورة، المجلد ٤، ع ١، س٢٠١٧ : ٤٨٧.
[٢٣] - ينظر : المصدر نفسه : ٤٩٢.
[٢٤] - ينظر : المصدر نفسه : ٤٨٥.
[٢٥] - الشمس خلف الغبار(رواية) : ٥٩.
[٢٦] - الشمس خلف الغبار(رواية) : ١٤.
[٢٧] - الجبان(رواية)، ياسين شامل : ٣٥.